أهل الأديان يعترفون أن الذى بين أيديهم، كَتَبَه كُتّابُهم مؤَيَدين بروحِ القدس أو كَتَبه أحبارُهم بعد وفاه نبيهم بسنين، أو تكاملت أسفاره بعد قرون.

وهذا القرآن الذى أعجز الإنس والجن. ولا يزال الإعجاز والتحدى قائما، يسر الله حفظه حتى لأبناء المسلمين يتلونه حق تلاوته وتستقيم به ألسنتهم وتلين له القلوب. وهو النور الهادى في الحياة، والنبع المتدفق بالخير والصراط المستقيم. هو الصاحب في السفر والأنيس في الوحدة، والدليل في المسير. هو الظل من شمس الأيام وهو السراج في ليلها وهو الحصن من شرورها وهو السلاح أمام أعداء الحياة.. هذه الآفاق المتسعة التى جاء من أجلها الإسلام وشق طريقه أرادت قريش أن تحصرها مستعينة بأهل الكتاب على سؤال عن فتية غابوا في القرون أو رجل طواف.. وأخبر الله رسوله بذلك.. ثم دعاه إلى متابعة مسيرته كما أرادها الله في طريقها الواسع العالمى وعلمه أن يدعوه قائلا: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾.

٢٠ – ختام قصة الكهف

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾

وهذه الآيات هى تمام قصة الكهف، وسنرى فيما نستقبل من الآيات الربط بين القصة وواقع الحياة الإسلامية. أما هذه الآيات الخاتمة ففيها مسائل.

الأولى: مُدة اللبث. ذهب بعض المفسرين إلى أن: "لبثوا" حكاية عما يقول أهل الكتاب. وبهذا يكون قوله تعالى: " قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ" تفويضا إلى الله في علم ذلك كقوله: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ وذهب آخرون إلى أن هذا إخبار من الله عن مُدة لبثهم. ولقد جاء في صدر الآية. ويكون قوله تعالى بعدها " قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ " قطعا للمماراة في مدة اللبث المختلف فيها بين أهل الكتاب أى أن الله أعلم منكم بمدة لبثهم وأنتم يا أهل الكتاب قد اختلفتم بينكم في حساب المدة.

الثانية: قول الله تعالى ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا. فيها توجيه إلى منهج علمى في حل الخلافات: ثلاثمائة سنين شمسية، تساوى زمانا ثلاثمائة سنين وتسعا قمرية. فقبل أى بحث – ينبغى الاتفاق على القواعد والمقاييس.

وحتى لو قلتم بمدة دون ذلك وأنها مائتان وأربعون، أو أن المدة المقصودة هى بقاؤهم في الكهف بعد موتهم إلى زمن نزول الآية. فإن آية الله تبدو بطول اللبث عما تعودتم أن تروه، وأن يحسب اللبث بالأعوام والقرون بعد أن كان يحسب بالساعات في تقلب الإنسان اليومى بين النوم واليقظة.. لا تقفوا عند عددهم، ولا عند طول لبثهم وقفوا عند العبرة العميقة من القصة وهى الإيمان بالبعث والنشور، والتوجيه من العقيدة إلى العمل والإبداع في الحياة.

المسألة الثالثة: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ ﴾

ردوا العلم إلى الله إن اختلفتم ٠ وخذوا بما جاءكم من عند الله بعد أن سألتم، وأفاض الله على رسوله من علمه، فلا تماروا بعدما جاءكم من الحق فغيب السماوات والأرض لله – تبارك وتعالى –

(أبصر به وأسمع) صيغتا تعجب من عموم علمه تعالى بالغيبات من المسموعات والمبصرات. هو الذى لا يشاركه فيه أحد.

المسألة الرابعة: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ وهذا الجزء من الآية قسمان: الأول حديث عن المشركين. والثانى قاعدة عامة وأصل تقوم عليه الحياة الدينية وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾

فهؤلاء المشركون ومن ساندهم من أهل الكتاب، لو نظروا في حقيقة أمرهم لما وجدوا لهم وليًا حقيقيًا من دون الله. وهذا التواصل بين مشركى مكة وأحبار يهود، والذى بدأت ملامحه في العهد المكى، وقويت أواصره في العهد المدنى، وبلغ ذروته في غزوة الأحزاب ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (الأحزاب: ١٠)

هذا التعاون بين المشركين من أهل مكة وقبائل اليهود في المدينة.. والذى يعلم فيه اليهود بيقين أن مشركى مكة عباد أوثان، ومع هذا نصروهم وناصروهم على الإسلام الداعى إلى التوحيد والمصدق بكل نبى ورسول.. هذا التعاون هو تولى شرك وجحود، لايقف على أقدام أمام الحق الذى جاء به الإسلام.

ولقد أعلنها الله قوية: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ هو أحكم الحاكمين. هو الأحد الفرد الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد هو الحى القيوم. ما اتخذ صاحبة ولا ولدا. ولا يشرك في حكمه أحدا. فمن أين جئتم بالشركاء والأنبياء والبنات والأوثان والأنداد؟ من أين جئتم بعبادة من دون الله يحللون لكم ويحرمون، ويأمرون فتطيعون، وأنتم على الصراط السوي ناكبون.

إن أساس الإسلام هو التوحيد، هو تأصيل قوله الله تعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ تأصليها في كل مرافق الحياة الإسلامية الدينية.

نسأل أنفسنا: ماحكم الله في هذا الأمر؟ أمامنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ – وقد فتح الله لنا باب الاجتهاد في دينه، بشروط وضحها علماؤنا استمدوها من كتاب الله السنه النبوية. وبينوا آفاق الاجتهاد وشروط المجتهد وما ينبغى أن يتوافر فيه، وتطور هذه الشروط والأساليب والآفاق مع تطور الحياة.

ونحن حين نتبع هذا إنما نتبع أمر الله وحده. هو الذى أمرنا بالإيمان به وبرسوله، وهو الذى دعانا إلى السير في الأرض، وهو الذى دعانا إلى سؤال أهل الذكر وإلى الاستنباط وإلى الجهاد والاجتهاد.

وهو الذى دعانا إلى إعمال الرأى في تعاون وحوار لنصل إلى القرار الأقرب للتقوى.

وبهذا نجد أن قصة الكهف إذا كانت قد بدأت بجوانب من أحداثها، إلا أنها ركزت في مطلعها وفى سياقها وفى خواتيمها على الركائز الأساسية للإسلام: عقيدة وشريعة وأخلاقًا، منهجًا وسلوكًا. وحذرتنا أن ننساق وراء دروب ضيقة من قصص أهل الكتاب. إذا هبطنا إلى أغوارها قطعنا أنفسنا عن أنوار السماء واتساع أفق الوحى وسرعة الحركة، فى ميدان الحياة.. تماما كما يدع السالك

الطريق السوى إلى أخاديد وأغوار وسراديب يضيع فيها بهاء الوحى. وتستهلك الطاقات في صراعات ضيقة لا تعود على الإسلام ولا على الناس بالنفع.

نعم: إن القرآن أجاب عن بعض الأسئلة، ولكنها إجابة؛ لتعرفنا عن هذا المنهج لا لِتُزيدنا إيغالا فيه..

من أجل ذلك، لم تأت بعد قصص هذه السورة، سورة أخرى مماثلة لها في وحدة طويلة تجمع هذا النسق كله. لا نقرأ هذا فيما نزل بعد هذا من القرآن في مكة أو المدينة، قد تأتي قصص قصيرة فيها جوانب من هذا الإعجاز كما في سورة البقرة مثلا – ولكنها جاءت لتخدم هدفًا قرآنيًا محددًا، دون أن تكون ثمرة حوار جديد بين المسلمين وأهل الكتاب أو تحديًا معرفيًا كما جاء في سورة الكهف، أو تأصيلاً لمنهج جديد. فالمنهج في هذه السورة قد تأصل، في أكثر من موضع فيها كما رأينا وكما سنرى إن شاء الله.

ولقد انعكس هذا على التفكير الإسلامى، أولاً في الدراسات الخاصة بالإسلام، وثانيًا في الدراسات المقارنة بين الإسلام والعقائد الأخرى وبدا هذا في أمور نود أن نجملها فيما يلى:

١- أن ما قبل الإسلام تراث إنسانى، علينا أن نستفيد مما فيه من العبر والقرآن يلفتنا إلى السير في الأرض والبحث في التاريخ

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الروم:٤٢)

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك ١٥) وبهذا اتسع الفكر الإسلامى زمانًا ومكانًا وموضوعًا.

٢- أن المسلمين نظروا إلى هذا التراث الإنسانى في نظرة ناقدة فاحصة لم يقبلوا عليه بتسليم أو رفض. وإنما عرضوه على محك العقيدة إن كان دينًا وعلى محك العقل والملاحظة والتجربة إن كان من أمور الدنيا. والله تعالى يعلمنا فيقول مخاطبًا رسوله والمؤمنين من بعده ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ (الإسراء: ٣٦)

وبهذا نستطيع أن نفسر مدى إقبالهم وأسلوب إقبالهم على تراث الهند والفرس واليونان والرومان

٣- أنهم أبدعوا لأنفسهم علومهم التى ينقدون بها حتى متون الحديث النبوى وأسانيدها وكانت لهم لغتهم العلمية المتميزة واصطلاحاتهم التى أثروا بها التراث الإنسانى كله. وهذا من أهم إضافات الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الإنسانية في شمولها.

٤- أن المسلمين جمعوا في العلم بين دقة المنهج والمستوى الأخلاقى الذى يزنون به الأفكار والناس ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٨).

٢١ – العقيدة و المجتمع

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾.

أود أن نقف عند هذه الآيات وقفة تأمل.. فهى بدء مرحلة جديدة في سورة الكهف،سبقتها مرحلتان هما مقدمة السورة وتبين أهدافها العامة ثم قصة الكهف والرقيم وما تخللها من منهج وتوجيه وحوار وحقائق. وأمامنا الآن رحلة مع هذه الآيات حتى نصل إلى قصة موسى والخضر. وتضم الآيات من السابعة والعشرين إلى التاسعة والخمسين.

هذه المرحلة الثالثة فيها انتقال من قصة الكهف إلى واقع الحياة الإسلامية في مكة وتمهيد لبناء المجتمع الإسلامى في المدينة. ويأتى هذا بتحديد المنهج والعناصر البشرية التى تستطيع أن تحمل تبعاته. ووصف لما أعد الله لعباده المؤمنين من طيب الجزاء وما أعد للظالمين من العذاب وضرب الله لهذا مثلين هما قصة صاحب الجنتين أو الصاحبين والجنتين. ومثلا آخر لهذه الدنيا وثيق الصلة بمدخل السورة.. ثم يذكرنا ربنا بقصة الخلق وأبينا الأول، وفيها ثنائية أخرى:

الخير والطاعة،والعصيان التمرد. آدم، الملائكة، إبليس، وعودة إلى التذكير بالحساب والعقاب، وتأكيد على اتباع القرآن الكريم وتحذير من الإعراض عنه، ثم تذكير بمغفرة الله ورحمته وبالوعد الحق ﴿ مَّوْعِدٌ لَّن تَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلاً ﴾.

هذا هو الإطار العام.. العبر بين القصتين: الكهف وموسى وبينها مثلان: صاحب الجنتين ومثل الدنيا،وهذا المعبر ليس مجرد وصل بين قصص، وإنما هو توجية أساسى في بناء الفرد والمجتمع الإسلامى.. فلننتقل من العرض العام إلى الآيات التى نحن بين يديها.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ فهذا أمر أول: اتل ما أوحى اليك.

ثم يأتى الأمر الثانى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾

فهذان أمران أولهما متعلق بالكتاب: القرآن: قراءة واتباعا، والثانى متعلق بالمجتمع إخاء وتماسكا: بين القائد والصحابة، وبين الصحابة فيما بينهم،وبينهم جميعا وبين القرآن الكريم.

وبعد الأمرين يأتي نهيان: أما الأول فقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

وأما الثانى فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ وفى النهى الثانى تبدو صفات المشركين والظالمين، وهى ثلاث أساسية: (١) "أغفلنا قلبه عن ذكرنا"، (٢) "واتبع هواه"، (٣) "وكان أمره فرطا": الغفلة والهوى والضياع.

والآيتان تجمعان بهذا بين أمرين ونهيين وثلاث صفات للضالين.

ولنبدأ بالمجموعة الأولى: القرآن والمجتمع ؛ القانون الإلهى والناس وتحس وأنت تقرأ الأمرين بالتحديد الواضح،واستواء الطريق أمامك. وتأمل قول الله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ ولقد تعلمنا من أصحاب المصطفى ﷺ مفهوم التلاوة عندهم: فهى قول وعمل. فهم وتصديق واتباع ربط وثيق بين كلمة الله وتنفيذها.

الخطاب موجه أولا إلى الرسول ﷺ والمؤمنون بالقرآن من بعده ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ وكلماته وما فيه من عقيدة وشريعة وقصص وأخلاق ودعوة إلى إعمال العقل وعمارة الحياة بالعمل الصالح وحماية العقيدة والمجتمع داخليا وخارجيا..

﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴾: أى لن تجد من دونه ملجأ في البيان والإرشاد. وبهذا صرفه عن مماراة المشركين وأهل الكتاب والتمسك بكلمات الله،ومعية الله في كل أمر.. فمن وجد الله لم يفقد شيئا. ومن فقد الله لم يجد شيئا. هو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

ويأتى الأمر الثانى متعلقا بالمجتمع ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ وليس المقصود من ذلك العكوف في الغداة والعشى في المساجد دون عمل،أو الانصراف عن عمران الحياة بالعمل الصالح فدعاء الله هو بكل عمل صالح وجهد صالح. إن الطالب المخلص في طلب العلم، والعامل المخلص في انتاجه. والباحث المخلص في معمله وتجاربه والجندى المخلص في تدريبه واستعداده، ورجل الأمن المخلص في حفظ النفوس والأعراض.. كل أولئك يدعون ربهم. دعوة الله ليست مجرد كلمة على أطراف الألسنة،أو مجرد رفع الأكف بالدعاء،ولكنها بالعمل المبدع إذا قصدنا به وجه الله وخير النفس والناس.. كل هذا دعاء وعبادة.

ولماذا خص بالدعاء الغداة والعشى؟. المقصود الاستمرار في الغداة وهو الصباح. هو الانطلاق من راحة الليل إلى مسئولية النهار، والعشى هو العودة من مسئولية النهار إلى السكن. والعكس صحيح لمن تحمله مسئولياته على العمل

ليلا والراحة نهارا. إنها تحديد أوقات الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أو من مسئولية إلى مسئولية.

وهى تنصرف إلى المنقطعين في سبيل الله لا يجدون حيلة إلا الاعتكاف حتى يفتح الله لهم من الرزق والعمل بابًا.

كان المقصود الأول منها فقراء الصحابة، الذين أقبلوا على الإسلام فحاربهم أهلهم والمجتمع في أرزاقهم، والمستضعفين الذين عدا عليهم أغنياء قومهم حتى فداهم القادرون من الصحابة كأبى بكر وعبد الرحمن بن عوف بأموالهم.. كانوا فقراء لايكادون يجدون ما يستر أبدانهم. أجسام ضعيفة من الجوع والفقر، وقلوب ملؤها الإيمان بالله تعالى.

ولقد حاول أغنياء قريش التأثير على المصطفى ﷺ من هذه الناحية، وأخبروه أنهم لا يغشون مجلسه لمن فيه من الفقراء والضعفاء بثيابهم الزرية وأوضاعهم الاجتماعية. فأكد الله تعالى للنبى أن هؤلاء الضعفاء هم الأقرب إلى الله بإيمانهم، وهم الأثقل في ميزانه في الدنيا والآخرة. ونلاحظ أن الله وصف هؤلاء بصفات عقائدية وأخلاقية مفتوحة الأبواب لكل مؤمن: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ أى إنسان مهما يكن وضعه الاجتماعى أو الاقتصادى ودعا ربه وأراد وجهه، كان على المصطفى ﷺ أن يصبر نفسه معه.. ولم يقل الله له: واصبر مع الذين يدعون ربهم. وإنما قال: ((واصبر نفسك)) في مزيد من التأكيد نفسك من الداخل. قلبك يامحمد يكون مع هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه.

وننتقل بعد هذا إلى النهيين: ﴿ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾

فكلما صبرت نفسك معهم، اجعل عينك عليهم ومعهم حبًا وإخاء فأنت يامحمد بالمؤمنين رءوف رحيم. ولا تعد عيناك عنهم. لا يمتد نظرك إلى من وراءهم من أغنياء قريش. إنهم مجرد زينة الحياة الدنيا. أجسام وثياب ومنظر خشب مسندة٠ مظهر دون مخبر. فاجعل المؤمنين قرة عينك، احبس عليهم نظرك كما حبست عليهم نفسك. إنهم معدن الإيمان والإسلام وعدتك ليوم الإسلام وغده.

وبنائه وجهاده. وبهذا يتأصل التماسك القوى بين القيادة والقاعدة وفيما بين القاعدة وبين الجميع والمنهج الربانى الذى جاء به القرآن.. لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا..

ويأتى النهى الثانى والأخير يحمل معه الصفات الثلاث للضالين: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ لا تطع هؤلاء الأغنياء في إبعاد الضعفاء. وصارحهم بما جاء به القرآن وأنت له متبع.. أما هؤلاء الضالون ففيهم صفات ثلاث: قلوب غافلة عن الحق صرفها متاع الدنيا وزينتها عن الفكر العميق المؤدى إلى الإيمان، واتباع الهوى ومظهريات الحياة وتراث الأجداد وإن كان باطلا، مواريث الجاهلية أو جحود أهل الكتاب.. فماذا كانت النتيجة.. وكان أمره فرطا.. لاضابط له.. وتصور ـ كمثال ـ مسبحة نزعت منها سلكها. وانتثرت حباتها.. كل حبة في اتجاه.. هكذا مصير الفكر والقلب.. إذا توزعته الشهوات والأهواء.. قارن هذا الأمر الفرط بالدقة الدقيقة والصراط السوى الذى تجده في صدر الآية الكريمة:

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾.

وصدق الله العظيم: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

٢٢ـ ثنائيات في سورة الكهف

يقول الله تعالى:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

هذه آيات ثلاث: واحدة في وصف الظالمين، واثنتان في وصف المؤمنين. الوصف الأول ينتهى بقول الله: وساءت مرتفقا، والوصف الثانى ينتهى بقوله: وحسنت مرتفقا. المقابلة واضحة بين الظلم والإيمان، والسوء والحسن. وكلمة "مرتفقا" ختام كل من الوصفين. فأمامنا مقابلة هى الرابعة حتى الآن في سورة الكهف، والتى تبرز فيها هذه الثنائيات:

١- فى صدر السورة مقابلة بين المؤمنين وبين الذين قالوا اتخذ الله ولدا.
٢- وتأتى قصة الكهف وفيها المقابلة بين المؤمنين والذين اتخذوا من دون الله آلهة.
٣- وتنتهى القصة لنرى ثنائية ثالثة: بين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجه الله وبين أصحاب القلوب الغافلة واتباع الهوى الذين انفرط أمرهم.
٤- ثم تأتى الثنائية الرابعة، وهى ثنائية ممتدة فيها وصفان وأول كل وصف عمل في الدنيا وآخره جزاء في الآخرة.

وستتوالى في السورة ثنائيات أخرى.. فبعد هذه الرابعة تأتى ثنائية خامسة مباشرة مطلعها قول الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾.

ذكرت هذه النماذج الخمسة المتوالية لأبين جانبا من نسيج سورة الكهف، وأننا نجد فيها خيوطًا ممتدة من أولها إلى آخرها. السورة كلها وحدة، تستطيع أن تتبعها في ثنائياتها، وتستطيع أن تتبع الإيمان في آفاق ظهوره عملا في الدنيا وجزاء في الآخرة وتستطيع أن تتبع الظلم والكفران في آفاق ظهوره: كيف يتسرب أولا إلى النفس، وكيف يعشش فيها. ويفرخ ويتكاثر وما أثره في دنيا الناس، ما جزاؤه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وتستطيع، وأنت تعيش مع خط الإيمان في السورة، أن ترى امتدادها عبر الزمان والمكان، فتزداد بالإيمان ألفة ومودة، وبالمؤمنين صداقة وحبا، وتحس – وأنت على طريق الإيمان – أنك لست وحدك، ولست في قلة، ولا في طريق مسدود. طريق الإيمان مفتوح مع بدء الحياة. وستأتى إشارات إلى قصة آدم في سورة

الكهف. والصراع بين الإيمان والجحود قديم.. أول قصصه ما كان بين آدم وإبليس، وأن إبليس قبل أن يغوى آدم، كان قد فسق عن أمر ربه فنصحه لآدم مردود عليه. فوسوسته له ولأبنائه هى الخطر الكبير. ولازال. وتتعاقب الثنائيات: أمثلة وقصصًا وأزواجًا.. ومع هذا الفيض من علم الله نقرأ في خواتيم السورة: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾

وبعد هذه الرحلة السريعة في السورة نعود إلى الثنائية التى أمامنا والتى تبدأ بقول الله: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾

قل لمن؟ إن نظم الآية الكريمة يحتمل وجوها، نصاحب في عرضها ما ذكره الإمام الفخر الرازى في تفسيره:

الأول: أنه تعالى لما أمر رسوله بأن لا يلتفت إلى أولئك الأغنياء الذين قالوا: إن طردت الفقراء آمنا بك، قال بعده: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ أى: قل لهؤلاء إن هذا الدين الحق إنما أتى من عند الله، فإن قبلتموه عاد النفع إليكم إن لم تقبلوه عاد الضرر إليكم، ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى، والقبح والحسن والخمول والشهرة.

الوجه الثانى: يمكن أن يكون المراد أن الحق ما جاء من عند الله. والحق الذى جاءنى من عنده، أن أصبر نفسى مع هؤلاء الفقراء، ولا أطردهم، ولا ألتفت إلى الرؤساء وأهل الدنيا.

الوجه الثالث: أن يكون المراد أن الله تعالى لم يأذن في طرد من آمن وعمل صالحا، لأجل أن يدخل في الإيمان جمع من الكفار. فإن قيل: أليس أن العقل يقتضى ترجيح الأهم على المهم؟ فطرد أولئك الفقراء لا يوجب إلا سقوط حرمتهم، وهذا ضرر قليل. أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر، وهذا ضرر عظيم، قلنا: أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر فمُسلّم، إلا أن من ترك الإيمان لأجل الحذر من مجالسة الفقراء فإيمانه ليس بإيمان، بل هو نفاق قبيح، فوجب على العاقل أن لا يلتفت إلى إيمان مَنْ هذا حاله وصفته: اهـ

وبهذا شرع الإسلام من أول الأمر ـ نظريًا وعمليًا ـ المساواة بين الناس في أمر الإيمان،وحفظ كراماتهم. فمن أقبل على الإسلام،فله كرامة الإسلام غنيا كان أو فقير،من سادة الناس أو من عامتهم وسوادهم. وجاء تطبيق ذلك في مرافق الحياة الإسلامية جميعا.. أقربها بيت الله. يجلس في الصف الأول من جاء مبكرا، ولا علاقة لهذا بغنى أو فقير. ليس صفوف المسجد الأولى للأغنياء وأوسطها لأواسط الناس وآخرها لفقرائهم.

كذلك مجالس العلم،أقرب الناس مجلسا إلى العالم من جاء مبكرا، وتتسع من حوله الحلقة دون تخطى أعناق الناس واختراق صفوفهم والجلوس في سماحة وأخوة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ (المجادلة: ١١).

وانشزوا: قوموا بعد انتهاء الدرس. ففي المجلس أدب جلوس وأدب قيام لا علاقة لهما بأى وضع اجتماعى أو اقتصادى

وتبلغ هذه المساواة ذروتها في موسم الحج، حين نتجرد من ثياب هى بين الناس ـ أو كثير من الناس ـ شارة تميز، وبيان لوضع اجتماعى أو اقتصادى ونرتدى جميعًا ثياب الإحرام. والإحرام حرمته. حرمة الإنسان: دمه وعرضه وماله وكرامته.حرمة الإخاء الداعى إلى المساواة،وتحس في المطاف أنك نقطة من هذا النهر الطواف حول الكعبة.. تتحول نفس الدائرة إلى مستطيل في السعى إلى نهرين هما نهر واحد.. يختلفان في الاتجاه ويتحدان في القصد،ثم أنتم جميعا في عرفات ضيوف الرحمن،أيديكم مرفوعة بالدعاء للواحد الأحد هنا يجمعكم الزمان والمكان والإحرام، ويجمعكم الخضوع للرحمن هنا الولادة الجديدة.. هنا التجدد: تجدد الإخاء والمساواة.. في عرفات اعرف نفسك،وفى الشهر الحرام أشعر قلبك ووجودك في هدوء ليل تضيئه النجوم والقمر. هذه المعانى النبيلة، وفى منى حوِّل هذه المعرفة وهذا الشعور إلى حب وتعبير عملى.. رجما للشيطان وطاعة للرحمن وإطعاما للبائس الفقير.. ويأخذ إخاؤك صورته العملية تعبيرًا عن حب الخير وكراهية الشر..

الإسلام كله إخاء ومساواة، إخاء ترتفع به العقيدة وأداء المناسك إلى أن يصبح جزءا من نسيج حياتك. بل يصبح هو الإيمان أهم معالم حياتك: وما الإسلام؟ إنه توحيد الله ووحدة المجتمع. ومن الوحدة والتوحيد تنطلق إلى بناء الحياة خذ الإسلام من أى زاوية شئت.. اقترب إليه من أى فجٍ عميق، ستجد كعبة التوحيد، والمؤمنون من حولها رموز المساواة عقيدة وسلوكا.. حتى الزكاة: هى مقاربة بين القادر وغير القادر، حتى الصوم أساسه المساواة.. ولا يباح فيه الإفطار إلا بشروط صحية أو طوارئ حياة حددها علماؤنا للرجال وللنساء.. للشباب والشيوخ و في غير هذه الطوارئ.. كلنا سواء، نتحرك أول الشهر بحركة القمر، وفى أثناء الشهر بحركة الشمس و في ختام الشهر مع القمر كأننا كون في الكون يتسق مع حركة الوجود..

لا يا كفار مكة.. ولا يا من تسيرون على دربهم، وإن حملتهم من الإسلام أسماء وشارات..إن الإسلام إخاء وكرامة، لا يذاد فيه فقير لفقره عن مجلس أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام. إنه مجلس الإيمان، وبطاقة دخولك إليه أن تكون مؤمنا أو راغبا في الإيمان، أو محترما لإرادة الإيمان.

أرأيت كيف تحددت معالم الإسلام الكبرى من أول أمره: الإيمان وكرامة الإنسان. وقول الله تعلى ينير لنا الطريق: وقل الحق من ربكم.

٢٣- فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

بعد أن بين الله لنا بأكثر من مثال طريق الحق قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾

وهذا التخيير تحذير من الكفر ودعوة إلى الإيمان في هذه الآية ينسب المشيئة إلى الإنسان: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وفى آيات أخرى تأتى المشيئة منسوبة إلى الله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

وفى آيات أخرى تأتى إرادة الإنسان مرتبطة بمشيئة الله ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

ومرة يأتى الفعل منسوبًا إلى الله (لا مجرد المشيئة) مثل قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (البقرة: ٧).

هذا بعد أن نسب الفعل إليهم في الآية السابقة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (البقرة: ٦) ولقد أطال علماؤنا القول في أمر المشيئة. والأقوال والمذاهب فيها متعددة. ولا أظن – ولا أريد أن أضيف جديدا أو أفتح حوار في أمر طال فيه القول. وليس منا أحد إلا سأل نفسه مرات عن سر القدر وحدود قدراته في هذه الحياة،وما أراده الله له ومنه.

والشباب بخاصتهم والمقبلون على الدين بأخص، يشغلهم موضوع المشيئة..

أما الكثير من أهل الغرب، فقد طرحوا الموضوع من أذهانهم. ألقاهم في المؤتمرات الدولية، وقد تسنح فرص للحديث في أمر الدين والألوهية والتقدم العلمى. وهم قوم لهم حياتهم واهتماماتهم. وأود أن أذكر في هذا الحديث ثلاثة صنوف في هذا الأمر، ثانيهم أقرب إلينا من الأول..

أما الصنف الأول، الغالب في الغرب، فقد جعلوا الإنسان محور الحياة والكون. البحوث والاهتمامات تبدأ منه وتنتهى إليه. الآخرة عندهم جذبوها إلى الدنيا. فالدنيا عندهم هى الدنيا والآخرة. هى العمل والجزاء والثواب والعقاب لا يمدون أنظارهم إلى ماوراء هذه الحياة،إلا قليلا. جاءوا من التراب وإلى التراب يعودون. والقليل القليل عن وصف الآخرة والحساب تجده حتى في كتب دينهم أو في عظاتهم. ولقد أرجع الأستاذ أرنولد توينى المؤرخ العالمى وهو من أعظم مؤرخى القرن العشرين أرجع هذا العالم الكبير تفشى الانتحار في العالم الغربى إلى هذا الاتجاه الفكرى أنه عمليًا ـ لا آخرة ولا إيمان بها عند القوم ـ أمّا الذين يؤمنون بعقيدة الآخرة وبالبعث والنشور فالانتحار عندهم محدود حين يقارن بالاتجاه السائد في الغرب. ذلك لأن الآخرة امتداد وعدل وأمل.. وراء هذه الحياة حياة،أما في الغرب فوراء الحياة فناء ومن هنا جاء اندفاعهم العنيف إلى ملذات الحياة كما جاء احتفالهم الكبير بالتقدم فيها والتفوق. فهى ولا شىء وراءها.. هكذا يؤمنون. وجعلوا التحدى هو تحدى التقدم. التحدى العلمى. التفوق. الابتكار وأسلوب التنافس والصراع المحموم والفردية التى تصل إلى حد الشراسة في معاملة الخصوم

أو الضعاف. والمجتمع العالمى أصبح معسكرات تحميها أسلحتها. الدولة بقوة سلاحها. المعسكر بقوة سلاحه. والتفوق والحرب دائرة عمليًا في المعامل ومراكز البحوث. ابتكار يقتل ابتكار. وسلاح يتفوق على سلاح. وحرب الأرض انتقلت إلى حرب النجوم.

ننتقل إلى اتجاه آخر يحاول أن يجمع بين الأخلاقيات والتفوق العلمى. إنسانيات هذا الاتجاه لا تجدها ـ في الأغلب ـ عند رؤساء دولهم إلا بعد أن يتركوا السلطان والمسئولية. أما وهم في سلطانهم فلا حديث إلا عن القوة والردع والتفوق. ومن دون الدول الكبرى يدورون في فلكها راضين أو مجبرين أو إلى حين.

وأذكر حديثًا مع مسئول منهم أن قال: إن التقدم العلمى قوة لاشك فيها ولكنها المارد الذى لا عقل له. لقد سيطرنا على طاقة هى قادرة على تدميرنا ومع النمو العلمى نعانى من ضمور في أخلاقيات التعامل العالمى. ارتبط القول بالأخلاق بالضعفاء. أما الأغنياء فسندهم هو القوة.

فهل يستطيع أصحاب الأديان أن يتقدموا إلى الإنسانية. بميثاق أخلاقى؟ وأذكر تعقيبًا لمسئول آخر أن قال: هذا حديث يقال عند المقابر وفى المعابد ولا يقال في ساحات السياسة وهى الصورة الأهدأ من ساحات الصراع ومن ورائها قاعات الأسلحة ومن ورائها ميادين القتال.

وانتقل إلى الاتجاه الثالث وهم أصحاب.الأديان الذين يبدءون من ((اللّه)) لا من "الإنسان" يبدءون من اللّه إيمانًا به: خالقًا للإنسان،باعثًا الرسل، منزلاً الكتاب،تقرأ في أول كتابه: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

اللّه الذى أكرم عباده أولا بنعمة الوجود وجعلهم خلفاءه في أرضه، والإنسان هو المخلوق الوحيد الذى له تاريخ.. هو كائن قادر على ربط الماضى والحاضر والتخطيط للمستقبل. وهو الكائن الوحيد القادر على حرية الإرادة وتسجيل هذه الحرية وتطويرها ونقل تجاربها. وحياته تفاعل بين توجيهات ربانية وجهود إنسانية. وأقصد بإنسانية: تجاربه وتجارب الآخرين الذين يقتربون أو يبتعدون عنه في الزمان والمكان.

هذا هو الإنسان

أمّا الله فقد عرّفنا بذاته وصفاته في كتابه وعلى لسان أنبيائه ورسله، هو المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص. ومن كمال الله كمال علمه، علم يستوى فيه ما نقول عنه نحن أنه الماضى أو الحاضر أو المستقبل: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٣) المستقبل في علم الله ـ كما نحدده نحن ـ يستوي مع الماضى. فعلم الله لا يزيد بالزمن، ولا تُضاف إليه معلومات مما يحدث منا، ولا ما تنتهى إليه إرداتنا الحرة.

هذا العلم المطلق لا يقيّد حرية إرادتنا. والله تبارك وتعالى المحيط بكل شيء يعلم ما تنتهى إليه إراداتنا. هذه صفة كمال لله وليست صفة جبر ولا قسر.

وأنت تحس هذه الحرية. ولكن لها حدود. حدود من القدرة البدنية والقدرة الفكرية والعصبية. حدود من التناسب الخَلْقى والخُلُقى. حدود من الوضع الاجتماعى أو المورد الاقتصادى.

ولن يسألك الله عن أمر هو خارج حدود قدرتك ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقد رسم لك دائرة إمكانات تتحرك فيها، وفى حدودها يكون حسابك. حسابك كفرد ﴿ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾. (مريم:٩٥).

حسابك في أمور ينبغى فيها التعاون مع غيرك. ولا تقوم الحياة إلا بالتعاون فيها. ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ (المائدة:٢) ومثل قوله تعالى في الدفاع عن المجتمع: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

والله يحاسبك على مدى ما أفدت من قدراتك، والمواهب التى أعطاها لك فرق بين حساب الذكى الموهوب والخامل المحدود، فرق بين حساب من كان على خزائن الأرض ومن قدر عليه رزقه، فرق بين حساب من آتاه بسطة في العلم

والجسم وبين المستضعفين في الأرض. كل أولئك محسوب دقيق. والله تعالى يقول: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

وأعتقد بهذا تتحدد الأبعاد الأساسية في قضية المشيئة. والملاحظ أن الإنسان لا يتجه إلى البحث فيها ـ في أكثر الأحوال ـ إلا إذا كان راغبًا في التهرب من مسئولية أو إلقاء العبء على غيره، أو كان مغلوبًا على أمره.

أما الناجح والمنتصر فهو أكثر الناس إحساسًا بحرية إرادته. وهو إذا كان مؤمنًا، كان أكثر الناس إحساسًا بفضل الله عليه إذ رضيه أهلاً للنجاح والانتصار.

وأذكر هنا كلمة عميقة لفيلسوف الإسلام محمد إقبال يقول فيها "إن المؤمن الضعيف يحتج بقدر الله. أما المؤمن القوى فهو قدر الله ينفذ الله به مشيئته"، وقد تناول إقبال موضوع المشيئة تحليلاً علميًا في كتابه. "تجديد الفكر الدينى في الإسلام" وتناولها أدبيًا في أكثر من كتاب من كتبه أذكر منها "أسرارى خودى"، "أسرار الذات". ورموز بى خودى ((رموز الذات)) أحدهما عن الفرد والثانى عن الجماعة الاثنان عن الإيجابية في مواقف الحياة، ثم بلغ الذروة في المقارنة بين المواقف الإنسانية من حرية الإرادة الإنسانية في حدود المشيئة الإلهية في أهم كتبه "رسالة الخلود" أو "جاويد تامه" وجاويد معناها الخلود. وهو في نفس الوقت اسم ولده، وتامة معناها كتاب.

وننتقل بعد هذا إلى عرض الثنائية الرابعة بعد هذا المدخل عن الحق والإرادة

٢٤ـ الظالمون والمؤمنون

بعد أن وصف الله تعالى الكفروالإيمان، والباطل والحق، أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والأعمال الباطلة،ويذكر الوعد على الإيمان والعمل الصالح[1] ولنبدأ بالوعيد كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ١١: ١٢١

نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

ونبدأ بالمعانى اللغوية لكلمات الآية: السرادق هو الحُجزة تكون حول الخيمة تحيط بها من كل جهاتها. المهل: ضرب من القطران أو صهير المعادن. والمرتفقة: المنزل أو ملتقى الرفقاء.

وهذا مشهد عذاب نستعيذ بالله منه ونسأله سبحانه أن يجعلنا من عبيد إحسانه، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ولا أكثر.

وعند كتابة هذه السطور طافت بذهنى ذكريات النشأة الأولى والبيت قريب من المسجد. وكان من عادة المؤذنين في بعض مساجد الإسكندرية قبل صلاة الفجر أن يتوسلوا إلى الله تعالى بالدعاء. وكانوا ينشدون بعض الأشعار بصوت فيه إنابة وتوجه إلى الله وحنين.. و استعاذة من النار وسؤال الله الجنة والمبادرة إلى التوبة.. ووقر في نفسى من قديم قولهم (الأبيات للأمام الشافعى رضى الله عنه):

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سُلَّما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ... ربى كان عفوك أعظما
فلازلت ذا عفو عن الذنب ... لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

وقوله:

إلهى لست للفردوس أهلا ... ولا أقوى على نار الجحيم
فهب لى توبة واغفر ذنوبى ... فإنك غافر الذنب العظيم

فإذا ذكرنا وصف النار في كتاب الله تعالى فهى نذير للعصاة أن يتوبوا ونذير للمؤمنين أن يزدادوا عن طريق الشر ابتعادًا.

ووصف الجنة من بعدها ترغيب للعصاة أن يتوبوا ويتخذوا إليها سبيلاً وللمؤمنين أن يزدادوا استمساكًا بالحق الذى بأمره يعملون،وعلى صراطه يسيرون.

وصف النار في القرآن من مظاهر رحمة الله تعالى. فهناك نفوس يكفى لكى تتجه إلى الخير أن تحس حلاوته. يكفى أن يأمر به الله وهناك نفوس تقبل

على الخير خشية النار والعذاب. والإسلام يجمع هذه الجوانب جميعًا.والله سبحانه وصف المؤمنين - بل صفوة من المؤمنين بقوله:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ (السجده: ١٥ – ١٨).

ولقد وصف الله تعالى المؤمنين في موضع آخر في كتابه فقال: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر: ٢٣).

فوصف النار كما جاء في كتاب الله تحذير. هو مظهر رحمة يسعد به المؤمن ويلقاه الظالم.. ولكن كيف يصل إليه؟ هنا لنا الوقفة تصور هذا الظالم يسير في طريق.. يمر على آيات الله في الأنفس والآفاق فلا يلتفت إليها أو يراها ثم ينصرف عنها. ويتابع سيره. فتعرض له أحكام الله وحدوده، فلا ينفذ حكما ولا يرتدع من حد. ولا يخشى عاقبة الليالى. ويتابع سيره. فيمر على ما وعد الله المؤمنين من نصر في الدنيا وتأييد وفى الآخرة من جنة عرضها السماوات والأرض، فلا يقف عند نصر الدنيا ولا ثواب الآخرة، ويتابع سيره.. يمر على حقوق الناس، وهي حقوق حياة كفلها الدين وكفلها القانون، فلا يردعه دين ولا قانون. ويتابع سيره.. هذا الذى تخطى في مساره حقوق العباد ، ونهب مال الفقير واليتيم، واغتصب وفجر، هذا الذى لا يرتدع من قانون أو دين.. ماذا يجد بعد أن تخطى كل هذه المراحل. وافرض أنه في الدنيا كان له من السلطان ما يجعله هو القانون، ومن البطش ما يجعله هو القوة.. فهل يتفق مع عدل الله أن ينجو هذا الباغى إذا جمع إلى البغى السلطان والبطش؟ إن عدل الله يقضى حسابا إذا عز حساب الدنيا وجزاء أخرويًا إذا استطاع الظالم أن يتابع ظلمه حتى يموت.. لن

يجد أمامه بعد أن تخطى كل هذه المراحل إلا النار بعد الحساب العادل يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والله سبحانه وتعالى أنذره هذه النار وهو في الدنيا وحذره منها، ووصفها له وصفًا دقيقًا كأنه يراها، فلا يلومن بعد هذا إلا نفسه. أرأيت أن من رحمة الله بعباده أن يبصرهم بما أعد للظالمين من عذاب، وللمؤمنين من ثواب؟.

ونعود إلى الآية الكريمة لنرى فيها وصف العذاب أعاذنا الله منه: ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا ﴾.

أعتدنا: فعل ماضى. والفعل الماضى يفيد الحدوث أو يقينًا كأنه الحدوث وقبل أعتدنا "إنا" تأكيدًا لهذا الإعداد. ونسبة الإعداد إلى الحق العادل الواحد القهار، وهي معدة للظالمين، هم الذين بدءوا بظلم أنفسهم وظلم الناس، أما الحق جل وعلا فلقد أنبأنا المصطفى ﷺ عن رب العزة في الحديث القدسى الذى يرويه عن ربه "ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا".

ووصف ربنا النار بقوله: ﴿ أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا ﴾ وما سرادق النار. كأنها نار من حولها سرادق من نار. هل هو دخانها؟ هل هى شعبها.. نستحضر في هذا قول الله في وصف النار في آية أخرى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴾ (المرسلات: ٣٠ ـ ٣٤).

وكيف تكون النار: ظلاً لا ظليلا، تتصاعد ألسنته، وترمى النار بالشرر ويختلط ظل النار بالنار ولا يدفع الظل لهبًا كما يحاول الإنسان في دنياه أن يستظل من حر الشمس، ويندفع شررها قطعًا كبيرة كالحجارة الصفراء.. أو كالإبل السود (والصفر سود الإبل[1])..

سرادقها تحمل معنى الحجزة التى تكون حول الخيمة، فليس للظالمين مخلص ولا مهرب من النار. النار تكتنفهم والدخان من حولهم.. لا فرجة حتى للنظر وليس إلا الدخان والنار و إلا حوار جاء ذكره في موضع آخر مع أهل النعيم.

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزى ٨: ٤٥٠- ٤٥١

وأى جسم يتحمل هذه النار؟ وأى صدر يتحمل هذا الدخان؟ نار واحدة كانت بردًا وسلامًا ،وكان هذا مع إبراهيم أبى الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام. أما هذه النار فالذى فيها لا يموت ولا يحيا، هى ليست كنار الدنيا الحارقة القاتلة. وأجسام الظالمين ليست كأجسامهم في الدنيا قابلة للحريق، ولا صدورهم قابلة للاختناق. وإنما إقامة في النار. لاهى موت يستريحون به، ولاحياة يطمئنون إليها.

ثم ذكر ربنا بعد هذا صفة ثانية للنار..

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾.

إنهم يستغيثون من حر النار ويأتى الفعل بعد هذا مبنيًا للمجهول "يُغاثوا" من يغيثهم؟ من يسقيهم؟ كيف؟ وكيف نعرف والفعل مبنى للمجهول زيادة في تصوير الهول.. الذى يُغاثون به "ماء" ولكن أى ماء؟ إنه ماء كالمهل: وتصور مصهور المعادن. تصور حمم البراكين السائلة، وقد سال فيها الصخر واندفع فوق الأرض حارقًا كل ما يجد.. هذا هو الغوث معدن مصهور.. وكيف تتحمله البطون.. إنه من بعيد بحرِّه واشتعاله يشوى الوجوه.. وهل لهذه الوجوه قدرة على مزيد من تحمل الحرارة.. النار التى تكتتفهم. الدخان من حولهم. معادن من صهير المعدن يشوى الوجوه وهو يقترب منها.. ويوضح ذلك قول الله تعالى في وصف مصدر هذا المهل ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ (الغاشية: ٢-٥) هذه العين الحارة هى مورد الماء الذى يردون. ثم يعقب ربنا على هذا بقوله ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ألم يكونوا من قبل في دنياهم ناعمين، وكانوا يستطيعون فعل الخيرات وإقام الصلاة والبر بالضعفاء وكفالة العدل. كانوا. ولكنهم عن هذا عدلوا إلى الشر والحرام. فهذا شرابهم يوم الجزاء، وساءت النار لهم منزلا ،وأهلاً لهم صحبة ورفقة. ومن تفسير (مرتفقا) ومكانًا يتكئون عليه بالمرافق. والاتكاء راحة. ولكن أى راحة.. لاشراب ولاراحة ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

أعاذنا الله من عذابه وجعلنا من أهل رحمته وجنته.